



الصلة بين الذاتية والموضوعية في الفن في الفكر العربي المعاصر

عبدالسلام احمد مولود ابوحميده
جامعة صبراته / كلية الآداب الجميل
abd.alsalam0314@gmail.com

The Relationship Between Subjectivity and Objectivity in Art in Contemporary Arab Thought

Abdelsalam Ahmed Mouloud Abuhamida

Sabratha University / Faculty of Arts, Al-Jumayl

تاريخ الاستلام: 2026/06/30 تاريخ المراجعة 2026/07/02 تاريخ القبول: 2026/7/30- تاريخ النشر 2026/08/23

الملخص

يعد الفن رسالة سامية بين شعوب العالم ، حيث يتم التواصل من خلالها بين البشر على مختلف انجاسهم وثقافتهم ولغاتهم سواء أكان التواصل مرئيا أو سمعيا ، ورسالة الفنان لا بد أن تنتقل في قوالب مألوفة عند الناس فهي تمثل أرضية مشتركة بين الجميع ، ومن هنا لا بد من دراسة الظاهرة الفنية هل تخضع لنظام الاتية والموضوعية معا أم انها تؤدي رسالتها حتى ولو كانت منفردة ؟ ولإيصال الصورة الصحيحة للمتلقي توجب الاشتراك بين ات الفنان وموضوعه في رسالته الفنية فالذاتية بدون الموضوعية قد تسبب في نوع من الغموض والثرثرة والتشويش لدى المتلقي والموضوعية بدون الذاتية من ناحية تعتبر نقلا ومحاكاة للطبيعة ومن ناحية أخرى تكون خالية من الحياة والابداع ، فالحل يكمن في انصهار الموضوعية من ناحية مع ذات الفنان من ناحية أخرى وبه المعادلة يمكن إقامة علاقة متوازية بين المبدع والمتلقي ، وكلما طبق الفنان هذه المعادلة كلما أدى ذلك الى فهم وتذوق العمل الفني سواء أكان رسما أم شعرا أم غيره من أنواع الفنون الأخرى فالحقيقة الموضوعية التي تتمثل في الكلمات والاشكال والمراثيات تكون جامدة بدون اضاء ذات وروح الفنان وعقله المبدع .

الكلمات المفتاحية: الصلة - الذاتية - الموضوعية - الفن - الفكر - العربي - المعاصر .

Abstract

Art is considered a noble message among the peoples of the world, through which communication takes place between humans of different races, cultures, and languages—whether this communication is visual or auditory. The artist's message must be conveyed in forms familiar to people, as these represent a shared ground among all. From this perspective, it becomes necessary to study the artistic phenomenon: does it adhere to both subjectivity and objectivity together, or can it fulfill its message even if it stands alone?

To convey the correct image to the recipient, there must be an integration between the artist's (subjectivity) and the (objectivity) of the subject in the artistic message.

Subjectivity without objectivity may lead to ambiguity, verbosity, and confusion for the audience, while objectivity without subjectivity may, on one hand, become mere imitation of nature, and on the other hand, lack life and creativity.

The solution lies in the fusion of objectivity with the artist's subjectivity. Through this equation, a balanced relationship can be established between the creator and the audience. The more the artist applies this balance, the more it enhances the understanding and appreciation of the artwork—whether it is painting, poetry, or other forms of art. Objective reality, represented in words, shapes, and visuals, remains lifeless without the infusion of the artist's spirit, self, and creative mind.

هناك علاقة بين الذاتية والموضوعية في الفن وهذه العلاقة هي مثار اهتمام الباحثين والمفكرين من حيث السؤال المطروح : هل الفن حقيقة ذاتية أم موضوعية ؟ بمعنى هل يجب على الفنان أن يكون موضوعيا في ترجمة واقعه أو يكون ذاتيا في التعبير عن آتاه وأفكاره ؟ من ها التساؤل سعى المفكرون والفلاسفة لدراسة الصلة الرابطة بين الذاتية والموضوعية لإخراج العمل الفني المتكامل بحيث يؤدي رسالته على أكمل وجه ، فرسالة الفنان لا بد وأن تنتقل في قوالب يعرفها الناس ، حيث تمثل بين الجميع أرضية مشتركة ، أيضا لس بالضرورة استخدام النظرة الموضوعية دون الذاتية في العمل الفني لأن لك يعني النقل الحرفي الخالي من الابداع كما وصفه افلاطون بأنه محاكاة للطبيعة ونقل حرفي خالي من الابداع .

لذا يركز هذا البحث على الصلة أو العلاقة بين الذاتية والموضوعية في بعض الفنون من خلال بعض آراء المفكر عباس محمود العقاد .

مشكلة البحث : تتمثل المشكلة في اكتشاف العلاقة بين الذاتية والموضوعية في الفن ويمكن صياغتها في التساؤلات الآتية :

س 1 / هل الفنون اتية أم موضوعية ؟

س 2 / كيف يتم الربط بين الذاتي والموضوعي في العمل الفني ؟

تكمن أهمية البحث في الحاجة الى فهم العلاقة بين الذات والموضوع فالذات تمثل الفنان أما الموضوع فيمثل العناصر الفنية سواء أكانت كلمات شعرية أم عناصر فنية أم أصوات موسيقية.

الهدف : يهدف هذا البحث الى تحليل العلاقة بين الذاتية والموضوعية في الفن مع استكشاف تأثير كل منهما على الآخر لإخراج العمل الفني وتطويره ، وبذلك يسعى الباحث لتقديم رؤية شاملة تعزز الصلة بين الذاتية والموضوعية في الفنون بصفة عامة مما يسهم في تحقيق تقدم معرفي مستدام لفهم طبيعة الفنون في سائر الأزمنة .

المنهج : أما المنهج المستخدم في هذا البحث فهو المنهج التحليلي لتحقيق أهداف البحث ، مع الاستعانة بالمنهج التاريخي متى لزم الأمر .

السؤال المطروح : هل الفن حقيقة موضوعية أو ذاتية ؟ بمعنى هل يجب على الفنان أن يكون موضوعيا في ترجمة واقعه أو يكون ذاتيا في التعبير عن وجدانه وأفكاره ؟ ونستطيع أن نجيب بسرعة عن هذا التساؤل بأن الحقيقة الفنية هي ذاتية موضوعية في أن واحد لأن الفن لو اقتصر على الذات دون الموضوع قد لا يستطيع المتلقي من الجمهور أن يدرك الرسالة الموجهة من المبدع وقد يسبب ذلك نوعا من الثثرة والغموض داخل عقل المتلقي ، حيث إن رسالة الفنان لا بد وأن تنتقل في قوالب يعرفها الناس وتمثل بين الجميع أرضية مشتركة ، وأيضا ليس بالضرورة استخدام النظرة الموضوعية دون الذاتية في العمل الفني لأن ذلك يعني النقل الحرفي الخالي من الإبداع، وإنما الحل يكمن في انصهار الموضوعية من ناحية مع ذاتية الفنان من ناحية أخرى . وبهذه المعادلة المتوازنة فقط تقوم العلاقة الصحيحة بين المبدع والمتلقي ، وكلما أحكم الفنان هذه المعادلة المتوازنة كلما أدى هذا إلى راحة المتلقي والتأثير فيه ، فالأعمال الفنية تتجح بقدر ما تؤثر وتستثير مشاعر الجمهور وهذا لا يتم إلا بالجمع بين الحقيقة الموضوعية من أشكال ومرئيات وبين الحقيقة الذاتية من معاني دفينة في عقل ووجدان الفنان .. أي بين الواقع الملموس وبين الإيحاء والاستدلال على ذلك دعونا نتصور أن فناناً يرسم الشمس كمجرد "دائرة" دون التعبير عن وجدانه ومشاعره الذاتية تجاه تلك الشمس، فسوف تصبح الدائرة في هذه الحالة غير محددة الخصائص وليس لها دور وقد يتوه المتلقي بين التفسيرات المجردة للدائرة أي قمر ، أو كرة ، أو بالونه ، أو برتقالة ؟ وإذا لم يضع الفنان بصمته ومشاعره ورؤيته على هذه الدائرة، فهو لا يحقق فناً وإنما ينتج أشكالاً مجردة بلا معنى ولا هدف سوى

نوع من الادعاء والتعالي . كان شعور الإنسان بالجميل أسبق من خلقه له ، فلقد انبهر الإنسان بمظاهر الجمال في الطبيعة واستمتع بها ، غير أن صنعه للجميل جاء متأخراً عن مراحل الشعور والدهشة ، ومما لا ريب فيه أن الجمال في الطبيعة لم يكن من خلق الإنسان ولم تتدخل فيه إرادته ووعيه ، و إن ما خلقه الإنسان في مراحل لاحقة في الفنون والآداب من جمال إنما هو خاضع لإرادته ووعيه ، إذن هناك جمال خارجي لم يتدخل الإنسان في صنعه ، وهناك جمال داخلي أبدعته الذات الإنسانية ، وهو خاضع لمعطياتها ومعاييرها ، ولا ينفي هذا الفصل بين الجمال الطبيعي والفني القوانين الكامنة في الجمال الطبيعي ، وإلا لو لم يكن هناك قانون يحكم الجمال الطبيعي لما استمتع الإنسان به وشعر بوجوده وأندش بمراه ، غير أن هناك سؤالاً يطرح نفسه : ما هو الجمال ؟ أي ما هي المكونات التي تحدد إن كان هذا الشيء جميلاً أو قبيحاً ؟ وهل هي خصائص قارة في الشيء الجميل أو قارة في الذات الإنسانية ؟ وبمعنى آخر : هل يصح أن تطلق كلمة الجمال على الموضوع سواء أكان الإنسان موجوداً أم غير موجود ؟ أي : هل للجمال وإدراكه خاصية إنسانية توجد بوجوده وتنتهي

بعدمه؟ وهنا يقول العقاد في الجمال الذي يقرنه في أغلب الأحيان بالشعر " إن وحي الشعر من سرائر النفوس لأصدق حكما من لسان التاريخ اذا اختلفت الحكمان .." (1) . وفي هذا القول نجد أن العقاد يميل إلى الذاتية في الجمال وذلك من خلال وحي الشعر الذي ينطلق من نفس الشاعر ، ويعتبره أصدق الأحكام حينما يكون هناك اختلاف في الحكم فيقول : " فليست الرياض وحدها ولا البحار ولا الكواكب هي موضوعات الشعر الصالحة لتنبية القريحة و استجاشة الخيال ، وإنما هي النفس التي لا

(1) عباس محمود العقاد : العبقریات الإسلامية ،المجلد الثاني دار الكتاب اللبناني ، ص : 288 .

تستخرج الشعر الا من هذه الموضوعات كالجسم الذي لا يستخرج الغذاء الا من الطعام المستحضر أو كالمعدم الذي يظن أن المترفين لا يأكلون الا العسل و الباقلاء (2) .

ونلتقي في هذا السياق بتصويرين متعارضين : يرى أحدهما أن للجمال وجوداً موضوعياً مادياً خارج الذات المدركة ، ويتمثل في الوجود المادي للموضوع الجميل وكيفية ترتيبه وتشكيله ، وما دام للجمال وجود موضوعي فإنه يمكن تذوقه والاستمتاع به ليس لدى مبدع الموضوع الجميل فحسب وإنما لدى الناس جميعاً ويرجع الجمال لدى التصور الآخر إلى الذات الإنسانية فهي التي تحدد للجمال وجوداً في الخارج وهو في حقيقته انعكاس الذات على المظاهر الخارجية أو الفنية ، ويكون إدراك الجميل وتذوقه في هذه الحالة بمدى تأثيره بالمتلقي ويشتمل الموضوع الجميل على عنصرين متداخلين : أولهما : المادة التي يتكون منها الموضوع الجميل سواء أكان كتلة الحجر في النحت أم الأصوات في الموسيقى أم الألفاظ في الأدب . ثانيهما : كيفية التشكيل ، أي التدخل الإرادي للإنسان الذي يعمل على تحويل المادة من كونها موضوعاً لا قيمة فنية له إلى موضوع له قيمة فنية وجمالية ، ويلتقي الموضوع الجميل ، طبيعياً كان أو فنياً ، في هذه الخاصية وهي المادة والتشكيل ، غير أن تشكيل الجمال الطبيعي قد تم عفواً واعتباطياً ، ولكنه في الجمال الفني تشكيل مقصود عمد إليه الفنان بوعي وإرادة ، ويتميز الجميل عن النافع بعدة أمور من حيث الحكم عليه ، إذ نقول عن النافع إنه حسن الصنع أو رديء الصنع في حين نطلق الحكم القيمي على الموضوع الجميل فنقول : إنه جميل أو قبيح ، وهذا يعني أن الموضوع النفعي يدعونا إلى أن نستخدمه دون أن نتذوقه ، في حين يكون الموضوع الجمالي مجالاً للتذوق ، ولذلك فإن اللوحة الفنية لا تزيد في صلابه الحائط في شيء... وأما هذا الكرسي الذي تجلس عليه فإنه قد يكون مريحاً دون أن يكون جميلاً على الإطلاق وإذا انتقلنا إلى تطبيق ذلك على الأدب وعلى لغة الأدب بخاصة لوجدنا لغة النفع لا تحمل أية دلالة فردية أو شخصية في حين أن لغة الجميل لغة شخصية تحدثنا عن صاحبها ويبدو أن هناك خصائص جوهرية لا بد من توافرها لتحديد ماهية الجمال وتتمثل في الانسجام بين الجزئي والكل ، ويتحقق ذلك من خلال العلاقة والتفاعل بين الجزئي والكل ، لأن الكل ليس حاصل مجموع الأجزاء وإنما هو علاقة الأجزاء وتفاعلها ببعضها في إطار كلها ، وبمكننا تمثيل ذلك بوحدة البناء وبخاصة بناء المساجد فإن هناك تناغماً وانسجماً بين الحائط والمئذنة ، وانسجماً وتناغماً بين كل مكون من المسجد ، وآخر في التكرار بين الوحدة والتنوع ، أما التكرار فإنه يمثل جانباً آخر من الجمال ، سواء أكان حسياً بصرياً أم مسموعاً ، إن التكرار هو إعادة تلك الوحدة التي بدأت بها على النظام المخصوص والتنوع هو أن تستبدل الوحدة بعد فترة بوحدة أخرى مابينة لها شيئاً يسيراً ، وتعيد هذا النسق فيما بعد فالشبابيك في الجامع تتكرر بوحدات معينة ، وتقع بين مسافات أبعاد متنوعة ، وأعمدة الجامع تتكرر وتتغير بينها مسافات مختلفة ، وكذلك الزخرفة خطوط ودوائر ورسوم تتكرر عبر مسافات معينة ، وكذلك الشعر الذي تتكرر فيه الأصوات الموسيقية والإيقاعية والتي هي أساسها القافية والوزن وهي التي تعطي للشعر السحر والجمال الذي يطرب له المتلقي دون شعور بالملل أو الضجر .

إن جميع الفنون الكلاسيكية العظيمة التي ظهرت في عصر النهضة الأوروبية وفترة اليقظة التي تليها قد التحمت بالموضوع وبالطبيعة وبالإنسان ، وركزت اهتمامها على خلق وتجسيد القيم الجمالية المطلقة .
"أما القرون التي تلتها وخاصة القرن التاسع عشر والعشرين فقد أخذت تتجه نحو أعماق النفس البشرية لمحاولة التعبير الذاتي عن تلك النفس ، وتجسيد حقائقها الظاهرية والخفية ومن هنا ظهرت الرمزية والسريالية والتكعيبية ، ثم انتهى هذا الاتجاه إلى الانسلاخ التام عن الموضوع وتوقع النفس البشرية على ذاتها ونسج الفن من خيوط الذاتية على نحو ما يفعل اليوم الفن التجريدي واللامعقول وغيرهما وعندئذ بلغ المد أقصاه ، واستيقظ الفن ليجد نفسه منسلخاً عن الموضوع أي عن (الحياة والطبيعة والمجتمع) . ومن هنا أخذت تبرز الآن اتجاهات سليمة تسعى إلى العودة نحو الموضوع أي نحو الحياة والطبيعة والمجتمع بعد أن أدركت أن الإنسان لن يستطيع فهم ذاته نفسها ، والتعبير عنها إلا من خلال تفاعله وانفعاله بالموضوع " (3)
وإن يكن من الواضح أن ظروف حياة العقاد الخاصة من جهة ، وثقافة القرن التاسع عشر الأوروبي التي تتغذى بها من جهة أخرى قد نمت إليه اتجاهين كبيرين وصلا في نفسه إلى حد العقيدة التي آمن بها في ثبات وصلابة وهما :

" الأول هو الحرية بأوسع معانيها من جهة والتي سيتم الكلام فيها بشيء من التوسع في موضوع الفن والحرية . أما الثاني هو الفردية والاعتزاز بالشخصية الذاتية المتميزة إلى أقصى حد بما قد يشوب هاتين النزعتين أحياناً من نفور من النزعات الجماعية ، أو المساواة الكمية ، ومع ذلك لم ينس التاريخ للعقاد أصالته وتميز شخصيته واعتزازه الشديد بكرامته وقوة إيمانه بالإنسان كفرد" (4) .

(2) عباس العقاد : عابر سبيل ، 1937 ، ص 4 .

(3) أنيس المقدسي : الفنون العربية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، ط 4 ، 1984 ص 232 .

(4) د محمد الجزيري : نظرة جديدة إلى فلسفة الفن عند العقاد ، المطبعة الفنية الحديثة ، ص 46 .

يرى العقاد أن الذاتية هي الغاية من الرقي ، وأن الرقي إنما هو الانتقال من وجود بغير ذات إلى وجود له ذات ، أو إلى وجود يعلم ذاته ويشعر بوجوده ، " فالجماد المبهمة الذي لا تعيين فيه أقل من الجماد الذي تعين بعضه من بعض ، وتميزت له أشكال وصفات ، وهذا الجماد أقل من النبات وكلما ارتقى النبات ظهر فيه التعيين بين شجرة وشجرة ، وبين ثمرة وثمرة ، واتجه إلى التخصص بعد التعميم وهكذا أحاد الحيوان وهكذا أحاد الإنسان ، حتى إذا بلغ غاية مرتقاه أصبح ذاتاً لا تلتبس بذات أخرى من نوعه" (5) .

وإذا كان الفن ينشد الكمال الموضوعي ، فإنه يهدف أولاً وبالذات إلى النجاح الذاتي ، ومهما كان من أمر تلك الصبغة الذاتية التي تتسم بها بعض الأعمال الفنية ، فإنه من المؤكد أن أصحابها إنما يهدفون من ورائها إلى الشهرة إن لم نقل إلى الثراء ، بدليل أن الفنانين لم يكونوا يسجلون أسماءهم على أعمالهم الفنية إذ لم يسع الفنان نحو المجد والشهرة ، ولهذا وجد في الفن القديم فن بدون فنان ومع ذلك بقيت تلك الفنون القديمة لأنها كانت فنون جماعية تعبر عن الإنتاج المشترك ، فكانت الملاحم اليونانية القديمة ثمرة لتظافر عدد كبير من الشعراء ، وفي المجتمع اليوناني كانت القصائد تدور حول الحروب في طروادة وظل هذا الطابع موجوداً حتى عصر متأخر حينما بدأ الشعراء يحدثوننا عن كوامن نفوسهم ، ويعبرون في قصائدهم عن أحاسيس فردية ، ومن هنا ظهر الشعر الغنائي (6) .

وإذا كانت الروح عند العقاد هي حقيقة الوجود ، فإن الذات عنده لها الأولوية في عالم الموضوع ، والحقيقة عند العقاد ليست موضوعية بقدر ما هي ذاتية . وبالتالي فالتفكير عنده ليس عقلانياً موضوعياً مجرداً ، بل هو جزء من الحياة ونوع من الأوبة ومعايشة صادقة وهنا يقول : " ليس يسرني أن تنتمي إلي أفكار كل من أقلتهم هذه الأرض من الأدباء والحكماء والعلماء ، إذا كانت غريبة عني بعيدة النسب من نفسي " والمعرفة عند العقاد هي بدورها معرفة ذاتية متكاملة لا تقتصر على العقل وحده وهنا يقول : " إن الإنسان لا يحيا بالعقل وحده ولا يفهم بالعقل وحده ، ولكنه يحيا بالحياة التي هي مجموعة من الحس والغريزة والعطف والبداهة والخيال والتفكير (7) وفي هذا الصدد يقول العقاد : " إذا اجتمع الأطباء فهناك طب واحد ، أو اجتمع المحامون فهناك قانون واحد ، وقضاء واحد ، أو اجتمع المهندسون فهناك هندسة واحدة وبناء واحد ، فكيف يجتمع الأدباء كما يجتمع الأطباء والمحامون والمهندسون وكل أديب منهم نموذج لا يتكرر ، ونمط لا يقلل المحاكاة ، وأدب تقابله آداب متفرقات . إن محامياً قديراً ليغني عن محام قدير ولكن هل يغني أديب كبير عن أديب كبير ؟ وهل ينوب خالق في الفنون عن خالق آخر في الفنون ؟ كلا... إن ينوب هذا عن ذاك ولن يختلط هذا بذاك ، كما أن الوجه الجميل لا ينوب عند عاشقه عن الوجه الجميل ولو اشتركا معا في صفة الجمال كل أديب نمط وحده ، وكل أديب في غنى عن سائر الأدباء إلا أن يتعاونوا في الحواشي والظروف دون الجوهر" (8)

إن المواظبة على تدوين اليوميات ، وكتابة السير الذاتية هما شكلان آخران يتصلان ببلوغ الحقيقة عبر الذاكرة . وإذا ما سألنا لماذا يواظب الناس على تدوين يومياتهم ؟ أو لماذا يكتبون سيرهم الذاتية ؟ فإن الإجابة لن تكون مباشرة ، ولكنها سترتبط دون شك مع ذلك الإحساس باستمرارية الذات الفردية التي اتضح أنها ذات قيمة فردية بالنسبة للبشر " إن قيمة أن أكون نفسي شخصياً ، ظل يحيا عبر الزمن ، هي قيمة يحس بها على حد سواء الأشخاص الاعتياديون تماماً ، والأفراد أصحاب القدرات الاستثنائية (9) .

وخصائص الفن الذاتي هي الاستقلال والغنى ، والاختلافات الكثيرة ، والمفاهيم القيمة المحدودة ، والبواعث الداخلية والخارجية في الشكل ، والتي تعمل في وقت واحد وهي كلها خصائص لها من الطبيعة القوية ما يسمح لها بالاستقلال . والفنان الذي يتعامل مع الفنون الذاتية المستقلة يشعر بالاستقلال خلال عملية التكوين الفني ، واتساع الأرض الخصبة من

الفكر الذي يجد له مساحات شاسعة وجديدة من متطلبات التحقيق والتنفيذ . بل إن قوة عضد الفن الذاتي هي التي تتلقى وتستقطب كالمغناطيس الفنون التابعة إليها مثل فنون الجماعة والفنون اللونية والفنون المساعدة والزخرفة الجميلة (10) .

فالذاتية إذن هي وسيلة التعبير عن الشخص أو عن سلوك الفرد ، والذاتية هي الخطوط النفسية غير المكررة التي يلبسها الفنان شخصياته وأبطاله ، و النماذج الجمالية تتحقق تحديداً عبر الإنسان ، والفن يعكس الأشياء مقدماً عالماً جديداً مختلفاً عن الحياة والدنيا عبر حسيات وحقائق وعلامات تكون معاً تعبيراً معيناً .

-
- (5) العقاد : دراسة تحليلية ، سابق ، ص 95
 (6) سناء خضر : مبادئ فلسفة الفن ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية ، ط 1 ، 2004 ، ص 236
 (7) محمد مجدي الجزيري : نظرة جديدة إلى فلسفة الفن عند العقاد ، سابق ، ص 7.
 (8) يسألونك : عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، ط 3 ، 1968 ، ص 11 - 12 .
 (9) ميري ورنوك : الذاكرة في الفلسفة والأدب ، ترجمة : فلاح رحيم ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ص 159 .
 (10) كمال عيد : فلسفة الأدب والفن ، الدراسات العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، 1978 ، ص 145 .

والذاتية لذلك تاريخية ونوعية " وتؤثر بمتطلبات مضمونه معينة ومحدودة ولكل تكوين فني عالمه الخاص به ، وهذه الخصوصية هي التي تحدد خط تصاعد التكوين واستمراره ، مبرزة طريقه وأساليبه للوصول إلى عملية التحقيق الأدبي والفني " (11) .

"الفكر ينشأ كموضوع ، وينبع في شكل ضمني مضمّر في نفسه ، ثم يتقدم خارجاً عن نفسه إلى غيره . أي إن وجدانية الفكر الأساسية بصفتها الذاتية تعبر إلى نقيضها أي إلى الموضوعية الخارجية ، وعلى نحو ما فعلت الفكرة حين انتقلت إلى خارجها وأوجدت بذلك عالماً موضوعياً خارجياً هو الطبيعة ، عمدت ذاتية الفكر كذلك إلى خلق العالم الموضوعي الخارجي في ذاته . غير أن هذا العالم ليس مجرد مادة ، بل هو العالم الفكري ، عالم الأنظمة الشاملة الروحية ، تلك هي أنظمة الدولة والقانون والأخلاق وهي موضوعية لأنها أشياء خارجية وليست هذه الأنظمة سوى الموضوعية الذاتية " (12)

أي إننا نبدأ بالفكر الذاتي ونقيضه الفكر الموضوعي حتى نصل إلى الفكر المطلق الذي هو الوحدة المؤلفة من الفكر الذاتي والموضوعي ، أي إن كلاً من الفكر أو الفن الذاتي والموضوعي يكمل كل منهما الآخر ، وليس للغة من غرض سوى التعبير عن علاقة الذات بالموضوع في مستوى الوحدة المباشرة ، وبصفة عامة يمكن القول بأن كل نشاط إنساني هو في غاية أمره تعبير ذاتي ، وفي كل شيء يقوم به المرء يعبر عن شيء يتعلق بنفسه أولاً وعن أشياء إضافية أو فرعية ثانياً فالتعبير عن النفس ملازم لكل عمل يعبر به المرء عن أي شيء . وبعض الأفعال أكثر تعبيراً عن نفس الإنسان من سواها ، فهناك أعمال يقوم بها الإنسان تعبر عن شخصيته تعبيراً أوضح مما تؤدي به سواها من الأعمال ، ويستطيع بعض الناس التعبير عن شخصياتهم أوضح مما يعبرون به عن غيرهم من الناس " والفنانون من أقدر الناس على التعبير عن ذواتهم وشخصياتهم كما أن الفن من أكبر الأشياء أداءً للتعبير ونقلًا للأحاسيس الوجدانية " (13).

وتتنطوي عبارة التعبير الذاتي على فكرتين : -

1 - إرضاء دوافع الإنسان إلى التعبير عن نفسه بأداء العمل .

2 - تحقيق الفعل بحيث تنكشف طباعه وخصائصه للناس .

ففي التعبير الذاتي حافظ إلى أداء العمل من ناحية ، واستعراض لقدرات الشخص على إبراز مقوماته الباطنية من ناحية أخرى .

أما أصحاب الموضوعية فيرون أن الجمال صفة حالة في الشيء تلازمه وتقوم فيه وتثبت في أرجائه بقطع النظر عن وجود عقل يقوم بإدراك هذه الصفة أو تذوقها ، وإذن فالجمال عندهم وجود موضوعي ، وله صفات وخصائص موضوعية ، أي إن الناس جميعاً يتفقون في تذوق الشيء الجميل والاستمتاع به في كل زمان ومكان ، وقد كان أفلاطون على رأس من ينادي بموضوعية الأحكام الجميلة حيث نجده يجعل الجمال مثلاً بالذات ، وهي الحقائق المثالية ، أي هي التي تقوم على الموضوعية في عالم الحس ، أي إنه يمكن القول على الشيء الجميل أنه صواب ، وعلى الشيء القبيح إنه خطأ (14)

(11) عبد الفتاح الديدي : فلسفة الجمال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985 ، ص 88.

(12) كمال عيد : فلسفة الأدب والفن ، سابق ، ص 228 .

(13) عبد الفتاح الديدي : فلسفة الجمال : سابق ، ص 34 .

(14) محمد عزيز نظمي سالم : علم الجمال ، دار الفكر الجامعي ، ص 68 .

العمل الفني لا يمكن أن يكون مجرد تعبير عن رغبة ذاتية في اللعب بل هو خيرة مستقاة من المجتمع بحيث صار لكل حضارة فيها الخاص بها ، والطبيعة التي يصورها الفنان تكون أفضل مما هي عليه لأنه يضيف إليها من ذاته الداخلية ما لا يراه المشاهد للطبيعة نفسها ، وبذلك يكون العمل الفني من رسم وشعر وموسيقى ونحت وغيرها من أنواع الفنون الأخرى ذاتياً وموضوعياً في قالب واحد ، ويتكلم العقاد عن إعجابه بلوحة للفنان " محمد حسن " وهو من جيل الرواد يصور أرملة أمام قبر زوجها ، وقد كتب العقاد في ذلك " أنظر كيف اهتدى مصورها البارح إلى الوجه الوحيد الذي هو أجمع لمعانيها وأليق بموضوعها وأشبه بحظها من الوقاء والجمال (15)

نجد هنا يشيد بمقدرة الفنان على جمع معاني الحزن التي أراد التعبير عنها في ملامح الوجه دون إفراط في استعراض الإشارات المباشرة .
وأشاد أيضاً بالطريقة التي جسد بها حركات النفس المعنوية دون مبالغة في حركات الأجسام ، وذلك من خلال ذات الفنان وإحساسه الداخلي بالمشاعر التي أخرجها في لوحته حيث تحققت الذاتية ، ثم نجد يذكر موضوعها أي الموضوعية في اللوحة حيث ذكر بأن المرأة أرملة ، وتقف أمام قبر زوجها ، وهذا هو موضوع اللوحة أي موضوعية الفن ، ونلاحظ مما كتبه العقاد أنه ربط بين الموضوعية والذاتية في العمل الفني الواحد ، ولا غني عن أي منهما . يظن بعضهم أنه ليس في الموضوع الجمالي سوى ما تنسبه إليه العين ، وما تضيفه عليه الذات ، ولكن مهمة عالم الجمال - فيما يرى بايير - أن يبين لنا كيف أن الذات ليست هي كل شيء في الحكم الجمالي ، وكيف أن ثمة شيئاً آخر يظل خارجاً عن الذات ، ألا وهو ما في الموضوع الجمالي نفسه من توازن في صميم بنائه (16) .

ويتطرق العقاد إلى نقد قصائد شوقي واحدة فواحدة، ويبدأ بقصيدته في رثاء فريد وقد كان شوقي ضعيفاً في الرثاء فيوضح رأيه في الشاعر الحق بقوله "إن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء، لا من يعددها ويحصي أشكالها وألوانها وأن ليست مزرية " وأول ما نادى به العقاد، ودعا إليه دعوة حارة هو " تحرير مضمون القصيدة من الموضوعات المستهلكة الوافدة من الزاوية الخارجية لنفسية الشاعر فحث الشعراء على استلهم أنفسهم والصدور عنها وغناء ذواتهم في قصائدهم، حتى يصبح الشعر تعبيراً عن النفس وخلقاتها ومشاعرها الإنسانية وتأملاً في الطبيعة وحقائق الكون وصورة لروح الأمة ووجدانها ولا يقف عند ظاهر الأسماء الطنانة، والتواريخ الفاصلة والحوادث المهمة بل يعكس ما يعتلج ويثور في الضمير القومي والحس الإنساني بصورة شمولية ونبضة إبداعية " (17) .

وخلاصة القول : إن الذاتية والموضوعية جزء لا يتجزأ أحدهما عن الآخر إذ إن الفن ينطلق من الطبيعة ومن روح الفنان ، يمزجه الفنان بمهارته ومقدرته الخاصة ثم يخرجها للمتذوق بقالب جديد مملوء بالذاتية التي أضافها الفنان وبالموضوعية وهي موضوع الفن ، وبهذا يكون الفن ذاتياً وموضوعياً ، فلا يعقل أن يكون الفنان قد أخرج عملاً فنياً بدون موضوع ولا يمكن أن يكون هناك موضوع فني بدون روح فنان . أصحاب الموقف الموضوعي يغفلون عن أمر هام وهو أن الفن ليس عملاً إنسانياً أو إبداعياً من جانب الفنان يتدخل فيه بفلسفته ومشاعره ووجدانه ، وكلها أمور ذاتية يصعب الحكم عليها موضوعياً .
كذلك يخطئ أصحاب الموقف الذاتي في حكمهم على العمل الفني بالذاتية وقولهم بأن الحكم الفني ليس عاماً ومطلقاً ، فكما قلنا إن هناك إحساساً يكاد يكون عاماً بين الناس ، ولذلك فإن الفن والجمال هما علاقة بين الشيء الجميل والعقل الذي يدركه ، فيكون الحكم الجمالي موضوعياً وذاتياً في نفس الوقت ، وأساس تلك الموضوعية هي مثول الموضوع للإدراك وأساس ذاتيته هي تدخل الذات الإنسانية وتأثرها وانفعالها وتفاعلها مع ذلك الموضوع الفني (18)

وهذا التكامل بين الذاتي والموضوعي والتداخل بينهما يؤدي إلى القول أن التوفيق بين الذاتي والموضوعي أكمل للحكم الجمالي وأشمل ، حيث إن العمل الفني هو موضوع من موضوعات الطبيعة التي تدركها الذات الإنسانية فتخرجها إلى المتذوق للعمل الفني في صورتها النهائية حتى تدخل على نفسه البهجة والسرور ليتسنى له معرفة الجميل من القبيح ، وبالتالي فالربط واضح هنا بين الموضوع وبين الذات التي بدورها ستخرج العمل الفني إلى حيز الوجود للحكم عليه ، وبهذا فلا عمل فنياً يخلو من الذات والموضوع ليتصف بصفة الجميل .
في ختام هذا البحث يمكننا أن نستنتج أن العلاقة بين الذاتية والموضوعية في سائر الفنون هي علاقة تكاملية حيث يسهم كل عنصر في إضفاء طابعه على العمل الفني ، فذات الفنان تعطي الحياة للعمل الفني أما الموضوع فهو مكمل لذات الفنان وبذلك يصبح العمل الفني مكتمل للمتلقي يستطيع تذوقه والاستمتاع به .

(15) بدر الدين أبوغازي : الفن في عالمنا ، دار المعارف - القاهرة ، ص 134 .

(16) شبكة المعلومات الدولية : <http://jamahir.alwehda.gov.sy> .

(17) نفسه .

(18) علي عبدالمعطي محمد ، فائزة أنور شكري : فلسفة الجمال والفن ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية 2002 ، ص 82 .

المراجع :

- 1- عباس محمود العقاد : العبقریات الإسلامية ، المجلد الثاني ، دار الكتاب اللبناني - بيروت ، ط 1 ، 1974 .
- 2 - عباس محمود العقاد : عابر سبيل ، 1937
- 3 - أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 4 ، 1984 .
- 4 - محمد مجدي الجزيري : نظرة جديدة إلى فلسفة الفن عند العقاد ، المطبعة الفنية الحديثة ، طنطا ، 1993 .
- 5 - سناء خضر : مبادئ فلسفة الفن : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ط 1 ، 2004 .
- 6 - عباس محمود العقاد : بسألونك ، دار الكتاب اللبناني - بيروت لبنان ، ط 3 ، 1968 .
- 7 - ميري ورنوك : الذاكرة في الفلسفة والأدب ، ترجمة : فلاح رحيم ، دار الكتاب الجديد المتحدة ط 1 - 2007 .
- 8 - كمال عيد : فلسفة الأدب والفن ، الدراسات العربية للكتاب ، ليبيا تونس ، 1978
- 9 - عبد الفتاح الديدي : فلسفة الجمال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985 .
- 10 - محمد عزيز نظمي : عالم الجمال ، دار الفكر الجامعي ط 1 - 2008 .
- 11 - بدرالدين أبو غازي : الفن في عالمنا ، دار المعارف ، القاهرة ، 1973 .
- 12 - شبكة المعلومات الدولية : <http://jamahir.alwehda.gov.sy> .
- 13 - علي عبدا لمعطي محمد - فائزة أنور شكري : فلسفة الجمال والفن ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2004 .